أوراق

مفارقة الماركسية العربية وقصة حسين الرحال (1)

حيدر سعيد

تستند الماركسية العربية إلى تراث سردي حافل، يحكي نضالاتها وعذاباتها. فثمة قصص ماركسية كثيرة، لها أبطال وحبكات وحلول، قبل أن تصبح قصة الماركسية في الثقافة العربية فكراً محضاً. واحدى مرويات الماركسية العربية قصة الشاب العراقي حسين الرحال، الذي يوصف بأنه أول ماركسي عراقي... تلك القصة التي لها نظائر كثيرة تتكرر في سائر الثقافات اللاغربية على نحو عام، بالتباساتها وعدم وضوحها وشدة الاختلاط فيها.

تبدأ هذه القصص بحدث متشابه، هو أن رجلاً من أهل البلاد يلتقي بماركسي أجنبي مصادفة، كأن يتتلمذ على يديه، أو يلتقيه في احدى السفرات، أو ما الى ذلك. ويكون هذا اللقاء عادة الواسطة التي ينتقل بها الفكر الماركسي. وفي النسخة العراقية من هذه القصة (...قصة حسين الرحال، المليئة بالأجواء البوليسية)، يتتلمذ الرحال على يد ارسين كيدور، الماركسي الأرمني الذي اقام في العراق لمدة، ثم يسافر إلى ألمانيا ويكون قريباً من أجواء بعض التنظيمات الماركسية ومن ثورة العمال في برلين سنة (1919) التي قادتها عصبة سبارتاكوس الماركسية ومن فكر هذه العصبة ومراجعها النظرية، وبعدها يسافر إلى الهند ويبقى فيها لمدة سنة على نحو عرضي، يلتقي فيها بشخص هندي يوصف بأنه مثقف ماركسي ثوري.

ثم تصبح القصص فكراً ونظريات، واصطلاحات، وأموراً جادة، فيزول الالتباس وعدم الوضوح والاختلاط، ولكن هذه القصص تبقى أشبه بالصفحات الأول من ملحمة طويلة، مشرقة وناصعة وبيضاء، لا يرقى اليها الشك.

وبازاء تحصيل الحاصل هذا... بازاء التطابق بين القصص والنظريات، والتدرج من الأولى إلى الثانية تدرج العلة إلى المعلول، لم يفكر أحد بأن يعارض السرد بالنظرية... والتأريخ بالفكر، وقد بدا كل ذلك بديهيات مطلقة.

سأستعمل، هنا، لغة وصفة أخرى، وسأقول إن هذا اللقاء الافتتاحي (الذي تبدأ به الماركسية العربية قصصها عادة) هو شكل من أشكال اللاثقافة... تلك القصة الكبيرة التي تجد، دائماً، وسائل لتحققها، بعضها بوليسي ومثير كقصة حسين الرحال.

بمعنى أن الماركسية العربية هن نتاج صميمي للعلاقة بين الثقافات وانتقال الأفكار من ثقافة إلى أخرى، وهي -بذلك- لا تختلف عن سائر الأفكار التي نقلت من الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية منذ بواكير عصر النهضة العربية.

وإذا أمنا بهذا، فسنكون أمام مفارقة نظرية مع النظرية الماركسية نفسها، التي تفترض أن الفكر هو تعبير (فوقي) عن محتوى طبقي محدد، وعن علاقات إنتاج، وعن تشكيلة اجتماعية اقتصادية محددة.

إن هذه الانعكاسية الداخلية تصلح للنظرية الماركسية الغربية، التي تطورت -حالها حال سائر الفكر الغربي- على وفق جدل داخلي محض، يخص تطور المجتمعات الغربية وتشكلاتها الطبقية والأيديولوجية والثقافية، بمعنى أنها لم تكن موجهة من قبل مرجعية ثقافية خارجية، الأمر الذي يصدق على الماركسية العربية وسائر الثقافة العربية، التي وجدت نفسها، بعد عصر الكولونيالية، أمام أنموذج أعلى، بدا لها أنه الحقيقة وأنه يمثل القوة والتقدم، فأصبح تطورها موجهاً من قبل هذا الأنموذج الأعلى، معارضة له أو مطابقة.

وقد كانت الماركسية العربية في صف التطابق مع الثقافة الغربية، وإن كانت الأفكار التي تبنتها في بداياتها هي أفكار عامة عن العدالة الاجتماعية. وبهذا المعنى، تكون الماركسية العربية جزءاً من (الليبرالية) العربية، إذا فهمنا الليبرالية بأنها التيار الداعي إلى الثقافة الغربية.

لقد كان هذا الالتباس سائداً في بواكير اهتمام المثقفين العرب بالفكر الماركسي، تشهد عليه، مثلاً، تحولات سلامة موسى، صاحب أول كتاب عن (الاشتراكية) في الثقافة العربية، وتشهد عليه تقلبات جميل صدقي الزهاوي، الذي حيّا الثورة البلشفية والداروينية وكتب عن نيتشه والجابية ونيوتن، كلهم على حد سواء، وللماركسية العربية، بذلك، مكافئة لجهود فرح انطون وأمين الريحاني ومحمود أحمد السيد وطه حسين، وإن كان كل منهم في تجاه.

وهذا يعني أن الماركسية العربية (التي يفترض أنها القاعدة الأيديولوجية لفكر الطبقة العاملة العربية) لم تكن تعبيراً عن محتوى طبقي بقدر ما كانت نتاجاً لمثاقفة مع الغرب.

وقد أصبح شهيراً إننا لا يمكن أن نتحدث عن طبقة عمالية، ولا حتى عن طبقة برجوازية، في مجتمعات لم تشهد ثورة صناعية على غرار ما حدث في الغرب.

وإذا كنا نتحدث عن برجوازية عربية وبرجوازية صغيرة وبروليتاريا عربية وما الى ذلك، فإن تلك المفاهيم لا يمكن أن تكون إلا بوصفها (تقريبات استعارية) -بالمعنى البلاغي- لا مصداق اقتصادياً أو ثقافياً أو ايديولوجياً لها.

لقد كانت هذه، بلا شك، إحدى المآزق النظرية التي اعترضت الماركسية العالمية. وهي لا تخص جانب الماركسية العربية فقط، بل أنها تربط بنزعة (التعميم) الابستمولوجية التي تصيب كل فكر على الإطلاق، والتي قادت المنظرين الماركسيين الغربيين أنفسهم إلى مطابقة المجتمعات اللاغربية وتأريخها وتطوراتها بالمجتمعات الغربية وتأريخها وتطورها الخاصين.

وقد جرت في الثلث الأخير من القرن العشرين محاولات نقدية راديكالية، اتجهت كلها إلى ما يمكن أن أسميه (التعميم الزائف) الذي استندت إليه النظرية الماركسية. وتمتد هذه المحاولات من سؤال ماركوز الجذري عن عدم قيام الثورة في أمريكا على الرغم من سعة الطبقة العاملة فيها وحدوثها في أفريقيا على أيدي الفلاحين، إلى كشف إدوارد سعيد عن الصورة الشمولية التي حكمت ماركس في تصوره للشرق، وصولاً إلى سمير أمين، الذي كشف عن أن المادية التأريخية إنما تربط بنزعة تمركز أوربي.

وإذا كنا، هنا، لا ننفي إمكانية الكلية النظرية والتعميم الابستيمولوجي، إن لم نقل إنه الجوهر الأساسي للممارسة العلمية، فإن ما حدث في الماركسية هو نوع من الخلط بين تعميم المقدمات وتعميم النتائج في ما يمكن أن أسميه (سوء استعمال الكلية)، فجرى تعميم النتائج، فأطلقت تسميات (البرجوازية) و (البرجوازية الصغيرة) و(البروليتاريا) على المجتمعات اللاغربية، وكان بالأحرى -ربما- تعميم المقدمات، بأخذ مقدمة (التفاوت الطبقي) بوصفها مقدمة سوسيولوجية وإعادة بناء فرضيات عن التشكلات الطبقية للمجتمعات اللاغربية، لا تقودنا بالضرورة إلى البرجوازية والبرجوازية الصغيرة والبروليتاريا وما إليها.

هذا فضلاً عن سبب أساسي ثان دعم مغالطة التعميم الابستيمولوجي هذه، وهو الخلط الآخر في الماركسية بين كونها علماً مضبوطاً بقواعد التعميم وكونها أيديولوجيا، بدت لمعتنقيها العرب أنها فلسفة للعدالة الاجتماعية أكثر من كونها ممارسة علمية.

مئوية حسين الرحّال ومحمود احمد السيّد

تمرّ في هذه السنة الذكرى المئوية الأولى لمولد اثنين من رواد الفكر الإشتراكي في العراق، وهما حسين الرحال، الذي يعد أول ماركسي ومؤسس أول حلقة ماركسية في العراق، ومحمود أحمد السيد، الذي تعد روايته (جلال خالد) الرواية الفنية الأولى في الأدب العراقي، فضلاً عما تضمنته من قيم العدالة الاجتماعية والانسانية. وتقيم مجلة (الثقافة الجديدة)، احتفاءً بهذه المناسبة واحياءً لهذه الذكرى، حلقة دراسية تعقد صباح هذا اليوم ويسهم فيها عدد من المفكرين والباحثين العراقيين.

وتستعيد (الدى)، بدورها، هذه المناسبة، لتشير إلى الأهمية البالغة التي تكتسبها، الآن، كتابة تأريخ الفكر العراقي المعاصر ورموزه الايديولوجيات، وقد ظلت هذه المحاولة غائبة، ومغيبة، تحت أسباب كثيرة، ليس أقلها المساحات وليس أكثرها أننا لم نتمكن بعد من أن ننظر الى الفكر العراقي من حيث هو فكر، في ثقافة ظلت تتنفس هواء الأدب والشعر والاستعارة، وسمح لبرهان ورجاله خارج قردوسها.

بدا منذ أواسط تسعينيات القرن الماضي، وكأن اليسار الماركسي قد تلاشى واختفت افكاره وكل القيم التي كان يطرحها، بعدما كان قوة مهمة في الصراع الواقعي، فاعلاً في نشر الفكر الاشتراكي والدفاع عن الاشتراكية منذ تأسس في عشرينيات القرن الماضي برغم كل الخطايا التي ارتكبها منذ نهاية الثلاثينيات فيما يتعلق بوعيه الواقع العربي وخصوصاً فيما يتعلق بقضايا تجاوز التكوين الإقطاعي وطرق التطور والمسألة القومية، ومنها القضية الفلسطينية وكذلك حينما (تجدد) نهاية الستينيات بنشوء (اليسار الجديد) الحالم بتجاوز مشكلات الماركسية القديمة، ويلعب الدور ذاته الذي لعبته الماركسية الصينية والفيتنامية والكوبية والجيفارية، هذا التلاشي لم يأت فجأة فإذا كانت الحركة الماركسية القديمة (الاحزاب الشيوعية) بمفاهيمها ونشاطها، تخبو منذ ستينيات القرن الماضي، برغم محاولات (التجديد) التي طالت بعض أحزابها فإن (اليسار الجديد) انطفأ سريعاً.

نحو إعادة بناء يسار ماركسي عربي

سلامة كيله

كارل ماركس

سمير امين

جورج حبش

العفيف الاخضر

وأشير هنا الى بداية انحدار بدأ منذئذ، وجاء انهيار المنظومة الاشتراكية أعوام 1989- 1991 ليكمله، مؤشراً على (نهاية الفعل)، وفاتحاً مسار تشتت وحالات ضياع وتساؤل وشك وكذلك (ارتداد)، رغم استمرار (احزاب) و(تجمعات) و(قوى) ليبدو كأن اليسار الماركسي قد انتهى وبهتت أفكاره وتشوشت وتاه مناضلوه في صحارى العولمة وأمواج البرلة.

إذن المسألة تتعلق بمشكلات قديمة، ربما نشأت مع نشوء اليسار الماركسي، وجعلته عاجزاً عن أن يصبح قوة فعل، أي يصبح قوة تغيير، وان يبقى (في الصف الثاني) أو على هامش الحركة الواقعية (رغم اهمية الدور الذي لعبه) مما جعل تلاشيه وتشوش افكاره وبالتالي التشويش على الماركسية والاشتراكية أمراً أمحتماً خصوصاً مع صيرورة التحولات الواقعية ونشوء تناقضات جديدة ومن ثم مع انهيار (مثاله) الذي كان يستمد منه شرعية معينة، تدعم وجوده الواقعي وتبقيه على (الخريطة السياسية) وأقصد (التجربة الاشتراكية) التي وجودها يسهل انتشار مفاهيم الاشتراكية ويبسط تلقيها ويقوي الحركة الماركسية انطلاقاً من التعارض العالمي مع الرأسمالية.

وبالتالي حينما يجري البحث الآن في اعادة بناء اليسار الماركسي وهذه مسألة ملحة فمن الضروري تلمس المشكلات والخروج بملخص تقييمي لهذا المسار، يسهم في توضيح مسار البناء الجديد أن نبتدئ باستخلاصات عامة تكون مفتاحاً لأية محاولة جديدة لكن بعد توضيح السياق الواقعي الذي أسهم في تحقيق ذاك التلاشي لمشكلات حيث ليس من الممكن ان نعزو التلاشي ذاتية فقط برغم أهمية هذه المسألة وأولويتها كذلك وربما كانت هذه من أولى المسائل التي تحتاج الى بحث للوصول الى استخلاصات مركزية خصوصاً فيما يتعلق بالحركة الماركسية القديمة.

هنا يمكن الاشارة الى المسائل التالية كاستخلاص لمسار ثلاثة ارباع القرن (1920- ....) من العمل الماركسي العربي:

1) سنلمس فيما يتعلق بمسار الحركة القديمة (الأحزاب الشيوعية) اختلالات في وعي الواقع العربي (فيما عدا استثناءات محدودة لم يكتب لها الهيمنة والسيادة) تتمظهر في ثلاثة مستويات، الأول: يتعلق بالدور الذي كان على اليسار الماركسي ان يلعبه، قيادة الحركة الوطنية العامة ام دعم قيادة البرجوازية؟ ولقد هيمن تصور دعم قيادة البرجوازية على سياسات هذا اليسار، مما حرفه في أزمة التطور البرجوازي وجعله ملحقاً لمشروع مجهض. والثاني: تشوه الرؤية المتعلقة بالعامل القومي سواء فيما يتعلق بالوحدة العربية، أو بالقضية الفلسطينية بعد نشوء الدولة الصهيونية سنة 1948 فقد امتازت بسيطرة العدمية القومية تحت شعار (الاممية) وبالتالي أضعاف مقدرتها الجماهيرية وتفتيت القوى التي كان يمكن ان توحدها. والثالث: يتعلق بفهم طبيعة الصراع الواقعي، بما هي مسألة حل مشكلة مجتمع زراعي (إقطاعي) متخلف (رغم تغلغل بعض العلاقات الرأسمالية) ينزع نحو التحديث والتصنيع. وبما انها اعتبرت ان المرحلة هي مرحلة برجوازية فقد تجاهلت وضع الريف واهتمت بمطالب (عمالية) ومهام (ديمقراطية) وبالتالي تخلت عن متابعة المشروع النهضوي العربي الذي عجزت البرجوازية المتشكلة عن تحقيقه. لهذا حصرت برنامجها في مطالب (اقتصادية) و(ديمقراطية) تتحقق عن مطالب برجوازية (يجب) أن تنتصر مما جعلها نيابياً لبرجوازية عاجزة وملحقة ببرنامج لا حياة له. وهذا ما فتح الأفق للأحزاب القومية (التي كانت أكثر راديكالية) وكذلك فتح للفئات الوسطى الريفية عموماً من خلال الجيش، حيث لعبت الدور التغييري الحوري منذ 23 تموز في مصر.

ولقد نتجت هذه الاختلالات عن مسألة جوهرية تتعلق بطبيعة وعي الماركسية والتزم (الماركسية السوفياتية) التي كانت الذي هو منهجيتها (الجدل المادي).

2) ولقد كان انتصار الحركة القومية العربية في العديد من البلدان العربية والخطوات التي قامت بتحقيقها سواء بهدم النظام القديم (الاقطاعي) أو الميل لبناء الصناعة والتحديث (التأميم، والتخطيط، ضمان حقوق العمال والطبقات الشعبية نسبياً مجانية التعليم) قد اسهم في سلب الحركة الشيوعية شعاراتها وأهدافها وغير الأرضية الطبقية والاجتماعية التي تأسست على وفقها وهدم كل طموحاتها بانتصار البرجوازية وصيرورة الواقع (على وفق منطق المادية التاريخية) الذي كان يؤشر الى ضرورة تحقق (الثورة الديمقراطية البرجوازية) لهذا ما لبثت أن اعلنت بان ما يتحقق في هذه البلدان هو الاشتراكية، فاندفعت للالتحاق بالانظمة الجديدة (تحت شعار التحالف في جبهات، أو حتى الاندماج) مما ربط مصيرها بمصير تلك النظم، وقلص من تأثيرها الواقعي ومن دورها الثقافي التنويري، كما تشوه دفاعها عن الاشتراكية نتيجة دفاعها عن الانظمة القائمة انطلاقاً من أنها انظمة اشتراكية (أو ذات توجه اشتراكي، أو تسير نحو الاشتراكية) مما ناش من بريقها كحركة يسار، قبل ان يكمل انهيار النظم الاشتراكية على البقية الباقية من ذاك البريق، ويدفع بقطاعات منها الى احضان الليبرالية والديمقراطية ويحولها الى (جثث ميتة).

3) وإذا كانت نهاية الستينيات بعد هزيمة حزيران 1967 وانكسار المد القومي وبدء تفكك الحركة القومية وانهيار نظمها، قد شهدت نشوء محاولة لتجديد اليسار بتبلور أحزاب ما سمي (اليسار الجديد) التي ولدت من رحم الحركة القومية بأحزابها المتعددة والتي نزعت الى الراديكالية وعملت على مراجعة العديد من شعارات وافكار الحركة الشيوعية القديمة ومن شعارات وأفكار الحركة القومية كذلك وأولت الجانب الإيديولوجي أهمية فائقة لكونها تحاول (تحديد ذاتها) وتوضيح هويتها، فقد توضح أن هذا الخاض أضعف من أن يؤسس يساراً جديداً حقيقياً، ليس نتيجة القمع الذي طاله من قبل الانظمة (وخصوصاً القومية) فقط بل كذلك، وكما توضح نتيجة العجز عن بلورة رؤية حقيقة للواقع العربي سواء بالفشل في وعي عمق التغييرات التي أحدثها وصول الحركة القومية الى السلطة في الدول التي وصلت فيها وفي الوطن العربي عموماً، أو بالفشل في وعي اشكالية المسألة القومية وموقعها في مجمل النضال العربي (ربما فيما عدا الموقف الواضح من القضية الفلسطينية التي كانت العنصر الحوري في نشوء هذا اليسار ولهذا اتخذ منها موقفاً راديكالياً عميقاً) وبالاساس بالفشل في وعي الماركسية وعياً علمياً يتجاوز كونها (نصاً) الى الانطلاق من كونها منهجية وأداة تحليل. وهو هنا حول الوضوح الايديولوجي الذي كان يطالب به ويسعى لتحقيقه الى مجرد (تعريف الانتماء) الى الماركسية اللينينية باستعارة افكار ومفهومات من ماركس ولينين وتروتسكي وماو وجيفارا والحزب الشيوعي الفيتنامي لا تسمح بتأسيس منظومة متماسكة بل هي على العكس تقود احياناً الى ميول (مغامرة) و(طوباوية) من قبيل حرب التحرير الشعبية، والثورة الاشتراكية وبالتالي يجعلها تعيد انتاج المنطق النصي) الذي حكم الحركة القديمة.

وإذا كان قد بدأ بالتأكيد على ضرورة (الوضوح الأيديولوجي) وبالتركيز على وعي الماركسية فقد انساق سريعاً الى (النضال العملي) و(خوض الصراع الطبقي) و(الممارسة) قبل أن تنجز مهمتها الأيديولوجية)، وقبل أن تعي الواقع وعياً حقيقياً، مبشرة أن الثورة على الابواب وأن التغيير مسألة راهنة وأننا على اعتاب ثورة اشتراكية راهنة يجب ان تنجز اليوم لأن انجازها غداً يعني تأخراً أسوف يفشلها بمعنى أنه عبر عن نزق شبابي جامح لم يلحظ الواقع ولا استطاع ان يفهم ممكناته لهذا تهاوى خلال فترة وجيزة (نهاية الستينيات الى نهاية الثمانينيات كحد اقصى لبعض أحزابه) دون أن يترك إرثاً فكرياً مهماً (رغم كل الاسهامات التي قدمها ورغم أهمية بعضها) سوى إرث السجون والاعتقالات وبعض من روح كفاحية ضرورية لأية حركة ماركسية.

4) وسنلمس هنا ان انكسار الحركة القومية العربية (عبر انهيار العديد من نظمها في مصر والسودان والجزائر وتحثر النظم الأخرى) قد فتح الأفق لنهوض أصولي شجعته ابتداءً (قوى الردة) ودعمته كهادم لليسار وللحركة القومية معاً، خصوصاً مع انهيار الحركة الشيوعية وانهيار (اليسار الجديد) ومن ثم (غروب) الأيديولوجيات الحديثة مما أطلق (مارداً) استند الى ذاك (الفراغ الأيديولوجي) من جهة والى الفئات التي تهمشت بفعل التطور المتحقق خلال مرحلة المد القومي أو بفعل تدمير هذا التطور الأمر الذي ما لبث ان اصبح (قوة الفعل الأولى) وأيضاً قوة التدمير الاولى، والذي بدأ أخيراً -عكس ما بدا الحظة نشوئه- كأنه حامل مشروع الحرب ضد الرأسمالية العالمية (وإن تحت مسميات الغرب أو الصيحية واليهودية حسب التعابير الأصولية المستخدمة) ومن ثم الوريث لحركة اليسار كلها برغم كل الظلامية التي ينشرها (بقصم البشر على أساس ديني، والحط من المرأة، وتكبيل المجتمع بقيم شمولية غاية في التخلف وبنشر الاستبداد واقحامه في ما هو شخصي) وبرغم عدم امتلاكه لخيارات اقتصادية واجتماعية تتجاوز الرأسمالية، او تحل محلها سوى خيار الدمار وتعميق التبعية للمراكز الامبريالية وتهديم القوى المنتجة وبالتالي تهديم المجتمعات.

وإذا كان الوطن العربي يعيش اكثر لحظاته عجزاً وأكثر لحظاته ميلاً للانفجار في مواجهة اخطار (نكبة جديدة) تطول المسألة الفلسطينية من جهة، واخطار تغيير الجغرافيا السياسية بفعل السياسة الامريكية المصممة على السيطرة والاحتلال من اجل الهيمنة على النفط والسوق والوقع الاستراتيجي وتعزيز الوجود الصهيوني من جهة اخرى فإن خيارات المواجهة تبدو هزيلة نتيجة هزال الحركة السياسة وحركة اليسار الماركسي خصوصاً أننا نعيش مرحلة المد الاصولي التحول الى قوة حرب ضد "الامبريالية" في الوقت الذي نشهد تلاشي اليسار الماركسي وتفكك قواه وقول فعله.

الخيار بين استمرار هذا المد الاصولي وتحوله الى قوة الفعل و(التدمير) الاولى ومن ثم استمرار العجز عن تحقيق المواجهة مع الامبريالية والوجود الصهيوني والفشل في تحقيق التطور والغرق في حروب تدمير بربرية او اعادة (لملمة) اليسار الماركسي واعادة بنائه كقوة حرب ضد النمط الرأسمالي العالمي وضد سياسات زعيمته الدولة الامريكية وكقوة تغيير داخلي (عربي) تهدف الى تحقيق التطور والتهيئة للانتقال الى الاشتراكية.

وبهذا فإن اعادة بناء اليسار الماركسي مسألة ذات ضرورة قصوى لكي يدفع بالتحولات التي تجري في "الشارع العربي" وحركة التسييس التي تطول قطاعات متسعة ويؤسس لتحقيق تغييرات عميقة تعيد تكوين الواقع العربي بما يحقق طموحات طبقاته الفقيرة والمضطهدة ويحقق طموح الامة بمجملها. ان اعادة بناء اليسار الماركسي هي الخطوة الضرورية، لأن، من اجل تجاوز كارثة الانهيار والتفكيك والخضوع: كارثة الاحتلال الجديد والسيطرة على النفط والاسواق والمصائر وتحويل الدولة الصهيونية الى "امبريالية فرعية" مهيمنة. وسنلمس اعادة البناء هذه تفترض مقومات معينة يمكن اجمالها في النقاط التالية:

اولاً: انطلاقاً من تلخيصنا السابق لازمة اليسار الماركسي، يمكن التأكيد اولاً وبشكل حاسم على ضرورة وعي الماركسية بما هي منهجية وقصد هنا الجدلي المادي لكونه "لب" الماركسية ومحور منظومتها يعين على تحليل الواقع الملموس تحليلاً علمياً ويؤسس لوعي آفاق تغييره ورسم صورة مستقبله. وهو وحده الذي يجنبنا الوقوع في (المنطق النصي) عبر تحويل الماركسية كل ما كتبه ماركس وانجلز ولينين، وربما تروتسكي او ستالين) الى (نص مقدس) يقاس الواقع عليه، كما كان حال الماركسية القديمة والماركسية السوفياتية، عموماً، وكذلك الماركسيات الاخرى (المادية، التروتسكية). وثانياً: العمل، انطلاقاً من امتلاك المنهجية الماركسية، على وعي الواقع، العالمي والعربي، وعي التكوين الرأسمالي العالمي واشره في الاطراف، لكي يكون ممكناً تحديد المهمات بسعي اليسار الماركسي لتحقيقها من اجل انجاز الاستقلال والتطور، ذلك اننا ازاء البحث في الواقع لوعي مشكلاته واكتشاف صيرورته التي وحدها تحدد الدور المنوط باليسار الماركسي. وثالثاً: تحديد آليات التغيير في مواجهة (الخارج) (أي الامبريالية والوجود الصهيوني)، و(الداخل) الطبقة السيطرة)، وكذلك تلمس تنوع اشكال النضال وتعددها ولمس تعقيد المهام وتشابكها.

هذه المسائل تفرض ايلاء النظري اهمية خاصة، فهو المدخل لبناء الحركة الماركسية والضرورة التي تجعل هذا البناء قادراً على التحول الى قوة الفعل وقوة تغيير، وحركة جماهيرية فاعلة، دون تجاهل كل ممكنات النشاط العملي.

ولاجل ذلك، ومن اجل اعادة بناء اليسار الماركسي، يمكن ابداء ملاحظات تكون أساساً لنشر جديد، او مقدمة لحوار ضروري:

- العودة الى ماركس لكونه مؤسس المنهجية الماركسية (الجدل المادي) ومكتشف قوانين الماركسية الاساسية، ومن ثم يمكن الافادة من كل الآخرين، وخصوصاً ممن اضافوا قوانين تصورات صحيحة. فالماركسية هي بالاساس الجدل المادي، قبل ان تكون رؤى وتصورات و(ايديولوجية) و(نصوصاً) إذن انا ادعو الى العودة للماركسية كمنهجية، ومن ثم (التخلي) عنها كـ(نصوص) وايديولوجيا، لان ذلك وحده هو ما يسمح لنا بوعي فتستعيد لنا ماضياً ما فقط، وبالتالي، تخفي الرهن وتضيع كل التحولات لهذا لا بد اولاً من استيعاب المنهجية الماركسية لانها وحدها من سيعيننا على وعي الواقع ووعي صيرورة تحولاته ودورنا فيها.

- تجاوز التشتت والانقسام اللذين سادا سابقاً وقاما على اساس ايديولوجيا او اختلافات حول قضايا (نظرية) واعتبار المهمات التي يطرحها الواقع هي اساس التوحد او الاختلاف. ان وعي الواقع والمهمات التي يطرحها هي التي تؤسس لنشوء حركة ماركسية موحدة، بغض النظر عن الاختلافات في القضايا الاخرى، وهذا يفترض تجاوز انقسامات الحركة الماركسية وتجاوز التمايز (العصبوي) (والفئوي) او الناتج عن اتخاذ هذا الفكر الماركسي او ذاك مرجعاً وحيداً، وعن الانقسامات القديمة للحركة الماركسية العالمية.

- ان يبلور اليسار الماركسي تصوره (الاستراتيجي) فيما يتعلق بالمشكلات التي يعيشها العرب، والتي يمثل حلها جوهر عملية التغيير الضرورية لتحقيق التطور. اننا ازاء مشكلات التجزئة والوجود الصهيوني والهيمنة الامبريالية ومشكلات التطور الاقتصادي (التمحور حول التصنيع، والتخلفة من فك الارتباط) وتطوير الوضع المعيشي للطبقة العاملة والطبقات الفقيرة الأخرى، والتحديث والتعليم وتكريس سلطة ديمقراطية تمثل المنتجين وما الى ذلك.

- التأكيد على مواجهة النمط الرأسمالي العالمي وصيغته الراهنة (العولمة) والعمل على توحيد القوى عالمياً للتصدي لاخطار العولمة ولحروبها المدمرة والنضال ضد الشركات الاحتكارية متعدية القومية ولميولها من أجل النهب والسيطرة واعادة الاستعمار. اننا بحاجة لحركة اممية على تحشيد القوى الاشتراكية وتنظيم نشاطها لكي تصبح قادرة على مواجهة وحشية الرأسمالية وبربريتها من اجل مستقبل متجدد للاشتراكية.

تجاوز (الانغلاق) اليساري في اطار الفئات الوسطى، والسعي لان تعبر الرؤى للطروحة عن مصالح الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء، وبالتالي العمل من اجل تنظيم صفوفها وتطوير فعاليتها وتأكيد نشاطها الثوري فالصراع هو صراع الطبقات والفعالية هي فعالية الطبقات، وانطلاقاً من ذلك، العمل للوصول الى الاجيال الجديدة (الشباب).

أساس كل ذلك هو الحوار بين مختلف اليسار الماركسي، من اجل بناء رؤيته (الوحدة)، مع التأكيد على الاختلاف والتنوع والتعدد، وبالتالي، التأكيد على الديمقراطية كقيمة ضرورية، وكأساس لكل عمل مستقبلي. الحوار هو نقطة البدء.

بعد كل ذلك، هل يستطيع اليسار الماركسي ان يتجدد؟ هذا هو الرهان الاساسي، وهو الهدف الراهن، والواجب الذي يجب على كل الماركسيين البدء به.